الطبعة الثانية

ماهر شرف الدين

سورة فاطمة



شعر

الغاوون

لوحة الغلاف: ألستاير سوكي

ماهر شرف الدين

سورة فاطمة

الطبعة الثانية 2012

الطبعة الأولى 2004

ولد ماهر شرف الدين في جبل العرب بسوريا العام 1977. صدر له في الشعر: «الرسام الفاشل» (1999)، «ملحق حمورابي السري» (2001)، «سورة فاطمة» (2004)، «العروس» (2007)، «تمثال امرأة تتجرع السم» (2008). كما صدر له في السرد كتاب «أبي البعثي» (2005).

الطبعة الثانية، 2012

لبنان، ص. ب: بيروت - الحمرا 113 - 5626
تلفون: 0096171573886
U.S.A: 13112 W. Warren Ave, suite 9
Dearborn MI 48126
Fon: 0013137217109

zeinab@alghawoon.com
www.alghawoon.com

الدخول إلى قصيدة النثر

(مقدّمة الطبعة الثانية)

عاشت أمّي إلى اليوم عُقدةَ خجل أنها أُمِّية. وحين بدأتُ أكتبُ الشعر كبرتْ هذه العقدة لديها. وككلّ الأولاد العاقّين كنّا، أنا وإخوتي، نسخر من عقدتها هذه. كنّا نمزح بها ونتسلّى أحياناً. وكأنما ثمة بالفعل وجود للآلام المضحكة. تذكّرتُ ذلك وأنا أتحدّث بالماسينجر مع زينب التي كانت في الكويت آنذاك (العام 2008). كنتُ مشتاقاً إليها وإلى أمّي في الوقت نفسه. ولكي أمزج هذين الشعورَين معاً رحتُ أحدّثها عن أُمِّية أمّي، وعُقدتها المضحكة. قلتُ لها إن ألم الأمّيين يُشبههم، لأنه لا يستطيع أن يقرأ أو أن يكتب، لا يستطيع التعبير عن نفسه. قلتُ لها إن ألم الأمّيين لا نحسبه ألماً لأننا لا نفهمه، أو بالأحرى لا نقرأه، وإذا حاولنا ذلك نسخر منه.

الآن تفهمون من كلامي أن عُقدة أمّية أمّي انتقلت إليَّ. حسناً. تفهمون أنها صارت تؤرّقني. حسناً.

وستسألون: لكن ما علاقة ذلك بقصيدة النثر؟

***

شتاء العام 2001، أي بعد أكثر من عامَين على التشرّد والجوع

في شوارع بيروت وتحت جسر الكولا وساحل الرملة البيضاء ومرتفعات خلدة، بعد اليأس الكامل من أن أجد من يلتفت إليَّ وينشر لي مقالاً في الصحف اللبنانية فأبدأ مسيرتي الصحافية والأدبية وأُحصِّل لقمة عيشي، قرَّرتُ الانتحار.

ضوء المغرب لم يُغادر أروقة الورشة المهجورة التي أسكنها خلسةً في مرتفعات خلدة حيث جهَّزتُ فيها كل شيء لنهايتي: موسى وشفرة أكثر صقلاً ورزمة أوراق لأكتب عليها أفكاري الأخيرة التي لا أعرف عنها شيئاً بعد.

كنتُ صباح ذلك اليوم قد أجريتُ اتصالاً أخيراً بأمّي المقيمة في مدينة الشدّادي شماليّ سوريا – والتي لم تسمع صوتي منذ أشهر – لأُلقيَ في صدرها كل أحقادي عليها وعلى أبي وعلى الله والعالم الذي كنتُ قرَّرتُ مغادرته. لكنّ أُمّيتها في تلك اللحظة نطقتْ، استطاعت أن تقرأ، استطاعت أن تقول الشعر مختلطاً بالدمع والقهر ومهانة البساطة التي جُبلنا عليها:

«يا ماهر، كل ما ندهت لحدا بغلط، بناديه باسمك. انشالله يا يمّي ما تكونش عَب تغلط مثلي وعَب تنده لشي وحدي يَمِّي».

(المعنى: يا ماهر، كلما ناديتُ أحداً أخطأتُ فناديتُه باسمك، أرجو ألا تكون قد أخطأتَ مثلي فناديتَ الأخريات: أمّي).

لم يعد ثمة أي حقد أرميه في صدرها، لكنّ السكينة لم تلمس قلبي

أيضاً. حالة من انعدام الوزن وانعدام الشعور وانعدام الألم أيضاً. حالة من انعدام المعنى في كل شيء. نحيبٌ بعيد يأتي من سمّاعة التلفون، وأنا لا أنطق بكلمة. نحيب أمّ بلا قرار.

أُقفل السمّاعة دون أن أقول لها شيئاً، وأنطلق مشياً على قدميَّ من جسر الكولا إلى مرتفعات خلدة حيث الورشة والشفرة والأوراق. ضوء المغرب لم يفارق أروقة الورشة إذاً حينما وصلت. جلستُ على لوح خشبي عارٍ اتَّخذتُه سريراً لأشهر، لا شعور بالبرد رغم أن البرد شديد، لا شعور بالوحشة رغم أن المكان موحش. شَرْطة خفيفة على ذراعي اليمنى بموسى عتيقة، الدم بدأ يسيل ببطء. جرح عادي سيتوقّف بعد قليل إن لم أُوسِّعه بنفسي. أتركه يلتئم فيتوقّف النزف. شَرْطة أخرى أسفل الشَّرْطة الأولى، والسيناريو نفسه. شَرطة ثالثة ورابعة والسيناريو نفسه. رميتُ الموسى جانباً، واستعملتُ الشفرة. الجرح عميق هذه المرّة والدم لن يتوقّف إذا لم أوقفه بنفسي... أتركه، وأبدأ الكتابة:

فاطمة. نحن نحبّ الصراخ في الوديان لعلمنا أننا لن نخسر أصواتنا. الوديان صمّاء تُعيدها إلينا: الصدى. لكنني اليوم أريد أن أخسر صوتي. خذيه يا فاطمة...

كنتُ صباح ذلك اليوم التقيتُ، للوداع أيضاً، بالفتاة التي أحببتُها

(فاطمة. ح)، في كلية الآداب – الأونيسكو، ولسوء حظّي أُصيبتْ يومها بنوبة عصبية حادّة، في العادة لا تضربها إلا حين تنسى أخذ الدواء، وقد نسيت الدواء ذلك اليوم في المنزل. راحت ترتجف وترتجف، وأنا أرتجف معها مغموراً بكل هذا الصقيع الذي ملأ حياتي:

وماذا بوسعي يا فاطمة. وأنا أحسّ أن أوراق الشجر اليابسة تترصّد قدومي كي تتساقط أمامي.

كانت فاطمة. ح مأخوذة بكل الأحلام الكبيرة والشعارات الكبيرة، وكانت متطرّفة في انتمائها إلى «الحزب السوري القومي الاجتماعي». لم تنتبه إلى حبّي لها. وربّما انتبهت ولم تجده جديراً بالاهتمام، وربّما كانت تعنيها سوريّتي أكثر من مشاعري. وكم آلمني في ذلك اللقاء الوداعيّ أنها لم تشعر من نبرة صوتي بأنني على وشك أن أتحوّل خبراً حزيناً ستسمع به في اليوم التالي:

حزنٌ يا فاطمة. حزن يملأني. أين أذهب بحبّي الآن وبفضيحتي. كم أستحي أن أموت جائعاً يا فاطمة.

هل للجوع الحقيقي (ولأيام متواصلة) معادل من الكلام حقاً؟ هل للشقاء والظلم والنوم في الشوارع فرصة لتبرز كاملة في مقطّعات

وأبيات؟ لم أسأل فاطمة عن ذلك، فهي لم تكن تعرف شيئاً عن الحالة المزرية التي أعيشها، لكنني سألتُها عن ذلك بشكل غير مباشر من خلال نقاشنا الدائم عن قصيدة النثر. كنتُ مهجوساً بمعنى قصيدة النثر، بفكرتها، بشرعيّتها، بالهجوم عليها، وفي الوقت نفسه كانت لديّ مشاعر خاصة تجاهها، كتلك المشاعر التي كانت لديّ تجاه فاطمة. ح ولم أجرؤ على البوح بها:

فاطمة. إن المطر – منيَّ السماء الشفّاف – لا يظهر على حقيقته كنطافٍ إلا على الزجاج. حين يصبح لقطرة المطر ذيل كالنطفة. انتبهتُ إلى ذلك يا فاطمة. حزين ولم يفُتني ذلك. ربّما لأن الجنس نوبة حزن. ولا بدّ أن الله كان حزيناً جداً حتّى ينام مع مريم.

كان غريباً جداً أن أبلغ كل هذا الحنان أمام كل هذا الدم الذي سال من شرياني حتى الآن:

وجهكِ الغالي يؤلمني كما لو أنه جرح.

كان غريباً جداً ألا تُفارق رأسي في تلك اللحظات الأخيرة فكرة أنني أحببتُ أمّي لسنوات. أن تعود إلى رأسي كل تلك الطفوليات والمشاعر المتوارية:

... وأنتِ وأمّي أُختان.

الأصوات التي يسمعُها المنتحرون عادة لم أسمعها. لكني كنتُ ممزَّقاً بين حالتَين عاطفيتَين: واحدة صاخبة أشبه بالمارش العسكري، وأخرى هانئة أشبه بالاستسلام للغرق:

فاطمة يا فاطمة. مهيبةٌ يا فاطمة. ووجه أمّي بحجم ذاكرتي. أين أذهب بوجهك الآن يا فاطمة.

... وأُمِّية أمّي حتّى في تلك اللحظات «الأخيرة»:

لحظات أخيرة. وأنتِ تصارعين أحزاني بأثداء رشيقة. تعاملي بعينَيكِ. أرجوكِ. اتركي قامتك الموحية بقامة أمّي. اهجريها. تعاملي بعينَيكِ ككلّ الأمّيين.

وحديث الأُمِّية يستجرُّ حديثَ الوحي:

الآن الآن أرى الوحي كنبيّ. وحي له رموش أمّي القصيرة. وخيبة والدي بي. وحزنكِ الطويل والغاشم. زمّليني بيدَيكِ يا فاطمة. أكثر يا فاطمة. الوحي بارد وموحش كوجه في الذاكرة.

... والثرثرة أيضاً:

يدي التي تنزف تكتب. لكن الوحي ثرثار. لا أستطيع تسجيل كل ما يقول. وداعاً يا فاطمة. وداعاً أيتها العزيزة. لأنك أعلى من ركبة. وأجمل من عُمر. وأقلّ من أمّ. شكراً لأنك أقلّ من أمّ.

ما كان يشغلني في قصيدة النثر هو تحديداً فكرة الاسترخاء، فكرة أن نكتب الشعر باسترخاء، حتى حين نريد أن نكون غاضبين. ما كان يشغلني في قصيدة النثر هو السؤال عن كيفية الكتابة بلا أُذنَين:

... وأنا الذي لا أكتب إلا مدجَّجاً بالقوافي والأوزان. أكتب إليك الآن دونهما. أنا أخاف النثر يا فاطمة. أخاف الشعور أنني أعزل. أنتِ تجرّينني إلى النثر. أنتِ تجرُّينني إلى حتفي.

كنتُ إلى ما قبل أشهر أقول لفاطمة: «هي قصيدة النثر لأنها ليست قصيدة الشعر». لكنني كلما ازددتُ بؤساً، ونمتُ على الأرصفة أكثر، وجعتُ أكثر، وتألمتُ أكثر، شعرتُ برغبة غامضة في كتابة شيء آخر غير ما كتبته في ديوانيَّ الأولَين. شيء أشدّ بساطة وأشدّ عمقاً. شيء مبعثر ككلام أمّي وأحزانها وصمتها الموجع. شيء بعيد عن المشية العسكرية الموزونة والخط المستقيم والذاكرة المتيقِّظة. شيء سائب وحرّ كحبّات عقد منفرط:

... جرَّبتُ أن أكتب لها رسالة. لكنني فكَّرتُ في الشخص الذي سيقرأ لها هذه الرسالة. أمّي لا تُجيد القراءة. وأنا لا أُجيد إلا الكتابة. الأفضل أن لا أكتب لها رسالة يا فاطمة. الأفضل أن أبكي فوق قدمَين غير قدمَيها. أمّي فقيرة يا فاطمة. وذلك الوضيع بابا نويل الذي جهل عناوين بيوتنا في الطفولة علّمنا أن نجهل عناوين أمّهاتنا عندما نكبر.

من أمّيّة أمّي دخلتُ إلى قصيدة النثر، من الذاكرة البيضاء والممحوّة، من المشية المتعثّرة والألم الذي يخجل بنفسه:

والشعر الذي لا يُكتَب نثراً والوجه الذي لا يُوجِع فاسقان يا فاطمة.

كانت أمّي من أولئك الناس الذين يكظمون ألمهم في قلوبهم. يكظمون قهرهم ودموعهم. وكثيراً ما كنت أسمع أنيناً متقطّعاً آتياً من جهة المطبخ، فأعرف أن أمّي تختلس دموعها اختلاساً بعيداً عن أعيننا. ولكثرة ما كظمت تلك المرأة قهرها لم أتخيّل قلبها إلا كفلذة كُحليّة متفحّمة:

وأنا أقلّ من أن أبكي فوق ركبتَيها العاليتَين.

أشعر بدوخة. أُمزّق قطعة من قميصي وألفُّ يدي. أقطع الدم الفائر الذي لطّخ الأوراق وبطني وبنطلوني. لم أجبن عن إكمال انتحاري. أبداً لم أجبن. لكني حين فكّرت بأن الصحف ستكتب بعد العثور على جثّتي: «عُثر على عامل سوري منتحراً...»، تراجعتُ.

كنتُ أريد أن أموت شاعراً. كنتُ أريد أن يُقال: «عُثر على شاعر سوري...».

لأجل ملايين الدموع التي ذرفتُها منذ أن لفظتني بطن أمّي تراجعتُ. لأجل القصائد التي لا يمكن أن تضيع تراجعتُ. لأجل هذه القطعة النثرية التي بدأتْ تتدفّق كهذا الدم المتدفّق من شريان يدي المقطوع.

أيّار 2010

كُتبت مسوَّدة هذه القصيدة سنة 2002

ونُشرت في كتاب سنة 2004

«كلّما ناديتُ أحداً أخطأتُ فناديتُه باسمكَ.

أرجو ألا تكون قد أخطأتَ مثلي

فناديتَ الأخريات: أمّي».

إذاً

أمّي وهبتني هذه القصيدة

وأنا، ككلِّ ابنٍ عاقّ، أهديها إلى سواها

إلى فاطمة. ح

فاطمة. نحن نحبّ الصراخ في الوديان لعلمنا أننا لن نخسر أصواتنا. الوديان صمّاء تُعيدها إلينا: الصدى. لكنني اليوم أريد أن أخسر صوتي. خذيه يا فاطمة. الحبر صرختي المكتومة. وماذا بوسعي يا فاطمة. وأنا أحسّ أن أوراق الشجر اليابسة تترصَّد قدومي كي تتساقط أمامي.

حماقة ما أكتب يا فاطمة. والنعاس الذي يبتزّ جائعاً وبرداناً وضيع أيتها العزيزة. وصوت أمّي على الهاتف كسَّر الزجاج في طريقي. لم أستطع أن أجيبها. لكني بكيت بكلّ عنفواني كرجل. أمّي تحبّني فوق طاقتي. وأنا أقلّ من أن أبكي فوق ركبتَيها العاليتَين. أنا أجبن من أن أتفل على وجهي في المرآة. أمّي يا فاطمة، كالبحر، من دون قمَّة.

ذاكرة محاصَرة. وأمّي مغارة الدموع يا فاطمة. جرّبتُ أن أكتب لها رسالة. لكنني فكّرتُ في الشخص الذي سيقرأ لها هذه الرسالة. أمّي لا تُجيد القراءة. وأنا لا أُجيد إلا الكتابة. الأفضل أن لا أكتب لها رسالة يا فاطمة. الأفضل أن أبكي فوق قدمَين غير قدمَيها. أمّي فقيرة يا فاطمة. وذلك الوضيع بابا نويل الذي جهل عناوين بيوتنا في الطفولة علّمنا أن نجهل عناوين أمّهاتنا عندما نكبر.

قلبٌ مصاب. ولو تعلمين . فقط لو تعلمين. ما الذي حلّ بي بعدما تركتك البارحة. بعد نوبة الأعصاب التي ضربت جسدك الصغير. بعدما ذهب كلّ منّا في اتجاه. كنت أمشي في الطرقات وأعبرها دونما اكتراث بالسيّارات المسرعة. كإنسان لا أستطيع التنفُّس إلا بمقدار رئتين. كنت أتمنى أن تدهسني إحدى السيّارات. أو تنهار عليَّ إحدى البنايات. كنت أتمنى انتحاراً مجانيّاً لا يكلفني قراراً. أو جهنماً كما تعتقد أمّي.

فاطمة. أمّي كآذان المساجد. جميلة عندما تكون بعيدة. أمّي هكذا يا فاطمة. رائعة وهي بعيدة.

عينان كعينَي أمِّي عيناك ذليلتان ومكسورتان. ونوبة الأعصاب التي أصابتك البارحة جعلتني أبكي طوال الليل. وأتذكّر أمّي. لا ترتجفي هكذا أمامي مرّة ثانية. أرجوك لا تفعلي ذلك. أنا عاجز عن ضمّك. وكان لا بدّ أن أكتب لك بعد لقائنا البارحة. وبعد اتصال أمّي. فالليل موحش مع الجوع والبرد. الليل قوّاد القصيدة يا فاطمة.

وجه يقترب. والحزن الذي يُفضي إلى ذاكرة قَدَر يا فاطمة. وجه يقترب. وأمّي تساعد ذكرياتي عليّ. أنا أسقط كمدينة عميلة. فاوضيها يا فاطمة. قولي لها إني جائع. قولي لها إني بردان. قولي ذلك يا فاطمة. ستلين تلك الطيّبة. أمّي لوحة زيتية لا تجفّ أبداً. لا أستطيع لمسها دون أن أخسر بصماتي. لا أستطيع لمسها دون تشويهها. سنظلم الله إذا قلنا إنه الإله الوحيد مع وجود كلّ هذا الظلم في العالم.

فاطمة يا فاطمة. مهيبة يا فاطمة. وطاقة للدمع يا فاطمة. وفرصة للانتحار يا فاطمة. ووجه أمّي بحجم ذاكرتي. أين أذهب بوجهك الآن يا فاطمة.

دميةٌ محطَّمة. وأنا الذي أكتب مدجّجاً بالقوافي والأوزان. أكتب إليك الآن دونهما. أنا أخاف النثر يا فاطمة. أخاف الشعور بأنني أعزل. أنت تجرّينني إلى النثر. أنت تجرّينني إلى حتفي. تنسين كلماتك هاهنا كما تنسين أقراط أذنَيك على الوسادة. أنا المُقعَد على سلَّم الذاكرة. أنا آخر الآلهة. أنا المهرّج الذي خلع وجهه بدل قبّعته ليُحيِّيك. يا دميتي المحطّمة. ويا قمري المركول بالأرجل.

شهوةٌ جامحة. وأنتِ راجعة من أهداب لم يتصفَّحها أحد. ومن حبوب على وجهك لم أفكّر أنها قمم. مغناج يا فاطمة. وعالية. والنهد والفَرْج تفاصيل.

فاطمة. أنت جلد أضاءه العَرَق. أنت فم له بكارة. أنت شَعر أصله لحم. أنت تقيّةُ إبط. أنت سرّة نافرة. أنت ثقوب محروسة. أنت جسد نهائيّ. أنت امرأة.

فاطمة. إن المطر – منيَّ السماء الشفّاف – لا يظهر على حقيقته كنطاف إلا على الزجاج. حين يصبح لقطرة المطر ذيل كالنطفة. انتبهتُ إلى ذلك يا فاطمة. حزين ولم يفُتني ذلك. ربّما لأن الجنس نوبة حزن. ولا بدّ أن الله كان حزيناً جداً حتّى ينام مع مريم. شيء على شكل جرح بين فخذَيك. هو كذلك. جرح وليس شيئاً آخر. أنا أشتهيك يا فاطمة. جائع وأشتهي شَعرك الذي ينبع كمنيّ أسود. أشتهي قدمك الحليبيّة التي تشبه نهداً بخمس حلمات. يا عاري الشخصي. ويا أختي الفاتنة.

بقايا من شمعة البارحة. وحظّ اللون الأصفر أنه اقترن بالخريف. الأصفر غير جدير بذلك. غير جدير بالذين يسقطون يا فاطمة.

فجر بلا رحمة. أقوم لأغتسل. فأرشق وجهي بالماء كما أرشق صنماً بالحجارة. الماء يسيل نحو الحفرة – مثلي – ولا يتعلّم. اعذريني على هذه الحماقات يا فاطمة. اعذريني على حماقاتي القادمة أيضاً. فماذا بوسع شخص إذا أراد التفتيش عنكِ قصدَ الشوارع الخالية.

فوضى فاجرة. وفرحتي الزاهدة بي أكرهها. وأنت عاجزة عن فهمي مثلما أنا عاجز عن تقديم نفسي. أرجوك لا تتظاهري بحشود مفاتنك أمامي من أثداء وكحل. فقط تعاملي بعينَيك كأمّيّة. ولتتركي المنديل – عادتك السيئة. عارٌ يا فاطمة. تعاملين عينَيك الباكيتَين كجسد بعد استحمام. وحدَها التي رتقت جواربي وثيابي الداخليّة قادرة على تمييز رائحتي.

رموشٌ كرموشك قصيرةٌ رموش أمّي. على الرغم من غزارة دموعها. كأنما لا يكفيها عقوقي. والقلب الذي ينفجر لا يُسمَع يا فاطمة.

حسرة إثر حسرة. ووجهك الغالي يؤلمني كما لو أنه جرح. صوتك الرفيع والمفجع ضجّتي الكبرى. اغفري لي يا فاطمة. إنني أذرف الدمع كما أقذف المني. أنا منحطّ وسافل وجبان. أنا إنسان يا فاطمة.

شاعر يموت. والمطر يدخل غرفتي من النافذة كاللصوص.

فوضى يا فاطمة. ورحيل الموت لا يتطلّب خيولاً أو عربات. وكيف لمثلنا أن يموت. مغفّلون نحن يا فاطمة. مغفّلون لأننا نحزن حين يموت أحبابنا. علينا أن نغضب منذ الآن. علينا أن نحقد على الموت المخادع والانتهازي الذي يقتلنا وهو غير مضطر إلى ذلك. كأننا من دون أمّهات.

وجوه فحسب. والألم الذي يسكنني هو أن يسبق موت أحبابي موتي يا فاطمة. شيء ما ينهار داخلي. انهياراً أخرسَ يخاف الفضيحة مثلي. جباناً مثلي.

انتحار متردِّد. وأنا شاب الخامسة والعشرين سأكتب سيرتي يا فاطمة. سأفسد عليهم متعة أن يرووا حكايتي. سأرويها كما أريد. وعندما يجدون جثَّتي لن يستطيعوا زيادة كلمة واحدة. وستبكي أمّي بدل أن تزغرد. بدموعٍ كأنها زغاريد سائلة.

ليس الآن. يا دمعتي الكبيرة ويا حلمي المُهان. ليس الآن يا طفلتي المذَلّة. ليس الآن يا فاطمة.

لا أحد. والطفل الذي بي يحتاج أمّهات عدّة. وبطنك الصغير سينتفخ مرتَين. في الحَبَل وفي الموت. وأظافرك التي تأكلين. وحذاؤك العزيز والمؤلم. ويدك الصغيرة والمبذِّرة. وتلك الشرائط الملوّنة التي تربطين بها شعرك. كفى يا فاطمة. ردّيني إلى أمّي وارحلي. أوهميها أنك ترحلين. لا تجرحيها يا فاطمة.

فاطمة يا فاطمة. مهيبة يا فاطمة. وماذا بوسعي أيتها العزيزة. وأنا أذهب إلى البحر كي أُدير له ظهري.

لعنة مستحقّة. والشعر الذي لا يُكتب نثراً. والوجه الذي لا يُوجع فاسقان يا فاطمة. وأنا أكره قريتي التي تخبّئ حَمْلها بملابس فضفاضة. وأضواؤها البعيدة كنجوم أرضيّة. بردٌ يا فاطمة. خذيني بيديك وبشَعرك. لا تعطيني لشحّاذ. أخاف الذين يحملون أكياساً على ظهورهم. أنا طفلك الفقير. يا أمّي الناقصة. ويا مريمتي الخاطئة.

بحر مشدود كبطنك. وأنا سأموت شاباً كما قال العرّاف لأمّي. ولماذا تحبّين البحر يا فاطمة. وكيف تسكنين بجانبه. أنا أكره البحر كما أكره القرى. النظر يسرح فيه كالغنم. ولأنه يستغرق الأفق. البحر صحراء من الماء. البحر لا يغرق. البحر بلا ثقوب. البحر بلا قمم. البحر شتيمة يا فاطمة.

جباةُ أحاسيس. أولئك الذين تعرفين. جباةُ أحاسيس.
وأنتِ وأمّي أختان.

عيون منكوبة. وأنا أعود إلى الكتابة كما لو أني مغدور. أعود إلى مصّ إصبعي كالأطفال. واللعب بأنفي كالأطفال. والبكاء كالأطفال. عدتُ طفلاً يا فاطمة. وغريب ألاّ أكتشف طفولتي إلاّ ساعة موتي. أحبّيني بلا رحمة. أكثر يا فاطمة. الليل مُفزع ومخيف كحبيب يموت.

حزن يا فاطمة. حزن يملأني. أين أذهب بحبّي الآن وفضيحتي. كم أستحي أن أموت جائعاً يا فاطمة.

قامةٌ قصيرة ومكسورة كقامة أمّي قامتكِ يا فاطمة.
وأحبّاؤنا الذين يرحلون ينسون وجوههم عن قصد لدينا. وجوههم خشنة في الذاكرة. ولا دمع يُطفئ ذاكرة. ووجه أمّي محيّر. عنيد كمرض. وجبان كسرّ.
يا ويلها إن صرت رجلاً يا فاطمة.

وجهٌ مخمَّش. وأنت تتكلمين على الليل والبكاء مثلما تتكلمين على الفساتين. وددتُ أن آخذ شفتَيكِ في فمي. أن أشرب ما قلتِه شرباً. مهلاً يا فاطمة. لم أحدّثك عن أخي كفاية. وعن نفسي كفاية. لم أحدّثك عن عبد المسيح. وعن ماري التي ماتت بالسرطان. ماري التي داستْ على قدمَيه كي تطال فمه. كانت قصيرة كوردة. وكان طويلاً كنهر(*).

يا طفلتي الملوّنة. ها يا طفلتي الملوّنة. والعيون التي تلمع تبكي يا فاطمة. ودقّات قلبك الضعيف تصمّ أذنيّ. بردٌ يا فاطمة. وروح الإله التي بي تتعبني. روح الآلهة لا تطاق. أين روح الإنسان يا فاطمة.

مخطئ من يموت. ونوبة الشعر التي تضربني قاضيةٌ يا فاطمة.

صباح مستحيل. والكتاب الذي كان يفتح دفّتيه كعاهرة يزدريني الآن. لم أعد أقوى على قراءة شيء. أو فهم شيء. سأنتحر يا فاطمة.

موت إلى غير رجعة. والريح تُهيِّج البحر والشجر كقحبة. فيضي يا فاطمة. بلا أسف يا فاطمة. اغمري شجري الواطئ وعيوني المهدَّمة. أنا المسكون بالأيدي. أنا قوّاد الألم. أنا سجّان الموتى في القبور.

هذه سورتكِ يا فاطمة. والمرآة لا تتوهّم لأنها بلا مخيّلة. ولا تتعجّب لأنها بلا ذاكرة. حماقة ما أقول يا فاطمة. لكنَّ وجهاً صغيراً كوجهك يسرع بي في الذاكرة. وجه له عيناك الغارقتان. وفمك المرمي في الزاوية. وشكل أصغر إصبع في قدمك اليسرى. صخب الذاكرة يا فاطمة. اتركي الضجيج على آخره. لأصل بالضياع إلى آخره.

شمعة ستنطفئ. وعيد ميلادي بعد أيام. قدري يطفئ شمعتي الآن. ليس استعجالاً بل لؤمٌ يا فاطمة.

فاطمة يا فاطمة. مهيبة يا فاطمة. وساحة للخيبة يا فاطمة. وقامة للرجم يا فاطمة. وفوضويٌّ هو الوحي.

لا موعد له يا فاطمة.

لحظات أخيرة. وأنت تصارعين أحزاني بأثداء رشيقة. تعاملي بعينَيك. أرجوك. اتركي قامتك الموحية بقامّة أمّي. اهجريها. تعاملي بعينَيك ككلّ الأميين. أقول لك كفّي عن الشعر والأحزاب. نظرة واحدة منك تكفي لأحتجّ على الله القابع في السموات. رقصة واحدة لك تكفي لأغمز من زيارته القليلة إلينا. آه يا فاطمة البكر التي لا تؤمن بالوحي والخرافات. آمني بالوحي خاصّتي. أُخمِّن هذه اللحظات التي أمرّ بها وأنا أكتب إليك أخمّن أنها لحظات وحي. زمّليني بيدَيك يا فاطمة. أكثر يا فاطمة. الوحي بارد وموحش كوجه في الذاكرة. كفى يا فاطمة. لا بدّ من كفى. السكين قريبة من يدي. دم يا فاطمة. دم يغسل الأوراق الآن. يدي التي تنزف تكتب. سأموت. والشاعر الذي يصير نبيّاً شقيّ يا فاطمة. الآن الآن أرى الوحي كنبيّ. وحي له رموش أمّي القصيرة. وخيبة والدي بي.

وحزنك الطويل والغاشم. أنا نبيّ يا فاطمة. يدي التي تنزف تكتب. لكن الوحي ثرثار. لا أستطيع تسجيل كلّ ما يقول. وداعاً يا فاطمة. وداعاً أيتها العزيزة. لأنك أعلى من ركبة. وأجمل من عمر. وأقلّ من أمّ. شكراً لأنك أقلّ من أمّ.

الهامش:

(*) «لأن شعارات بلادنا لا تُدفن بعد موتها، فلها رائحة الجثث»، هكذا علّق عبد المسيح عندما رأينا أحد الحرّاس مغطّساً في دمه، وممدّداً تحت جدار كُتب عليه شعار حزبيّ بائس. الصحيح أني انتظرت من عبد المسيح التعليق على الجثة المرمية على الأرض (الحارس)، لا على الجثة المعلّقة على الحائط (الشعار). كنّا أمام جثتَين: جثة اللحم، وجثة الكلمات. أنا مشغول بالأولى، وهو بالثانية. «مات بنفسه»، قال أحدهم لضابط الأمن شارحاً له ما حدث. كان يقصد أنه انتحر. «مات بنفسه يا سيّدي. مات لأنه تعبان. البارحة قال لي ذلك. مات ليرتاح». كان الضابط يهزّ رأسه كأنما فهم معنى كلمة «تعبان»، عندما صرخ أحد أصدقاء المنتحر: «إنه شهيد». أردت أن أضحك، لولا أن عبد المسيح كان سبقني إلى ذلك. دخل عبد المسيح السجن بسبب تلك الضحكة، وخرج لأنه أقنع الضابط بأنه «تعبان»، كما روى لرفاقه الذين زاروه في المشفى العسكري. بدأت معرفتي بهذا الشاب عندما أتانا رقيباً مجنّداً إلى القسم الذي كنت أخدم فيه. كان نحيلاً جداً، وكنت على أبواب التسريح من خدمتي الإلزامية. «كنِّسِ الغرفة يا عبد المسيح، يقول له أحدنا، فأنا كنستُها البارحة، ومن

ساواك بنفسه ما ظلمك»، فيكنسها. «اغسلِ الصحون يا عبد المسيح، يقول له آخر، فأنا غسلتُها البارحة، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك»، فيغسلها. «املأ البرميل بالماء يا عبد المسيح، فأنا ملأته البارحة...»، كان يعرف أننا أوغاد، لكنه كان شديد النسيان، ولطالما وصف ذاكرته بالسافلة. كنت قبل ذلك بفترة قصيرة قد اكتشفتُه كصديق: عبد المسيح الشاب المهووس بالنظافة، الذي يستحمّ أربع مرات في اليوم، والذي يخاف الصراصير أكثر مما يخاف الضباع. لم يكن ينقصه شيء لكي يصبح شاعراً: وجهه الحزين. عيناه الدامعتان. شروده الكثير. ذاكرته. لم يكن ينقصه شيء لكي يصبح شاعراً سوى أن يكتب الشعر. تبدأ مأساة عبد المسيح، أي ولادته، في أسرة فقيرة، لم يخبرني عنها شيئاً سوى أن إخوته، بعد وفاة أبيه، استولوا على حصّته من الأرض والبيت. كان يخاف الجوع والتسوّل، وكان يهذي في مناماته بعبارة المتسوّلين الشهيرة «لله يا محسنين». وفي الصباح حين أخبرُه بذلك، يضحك ويقول: «شحّاذ بلا ذاكرة! أتخيّل أني سأكون جاحداً جداً». في آخر مرّة زرتُ فيها عبد المسيح في السجن، ولم أعد أجرؤ على ذلك، كان في حالة استنزاف: كان يستنزف ما تبقى له من الذاكرة. السجناء يظنونه مجنوناً، وحين كلّمته وراء القضبان سألني: «لماذا نمدّد الموتى على ظهورهم في القبور؟». في البداية ظننت أنه

جنّ، لكني سرعان ما اكتشفت أنه آخر الذاكرة. آخر قطرة في خزّانها: كان عبد المسيح قد قرأ لي في الماضي آخر رسالة كتبتها له ماري قبل أن تموت بالسرطان. كانت تدرس الفلسفة، وكانت تملأ رسائلها بأسئلة كهذه، طالبةً من عبد المسيح الإجابة عنها. كان ذلك السؤال الذي سألني إياه عبد المسيح هو الأخير الذي سألته إياه ماري، وعندما ستموت لن يجد عبد المسيح الإجابة عنه، أو أنه لم يكن يريد العثور على الإجابة: كان يحاول إبقاءها حيّة بتعليق الإجابة. كان يظنّ أن ماري لن تموت ما دامت لا تملك الإجابة. واستمرّ عبد المسيح في ذلك بعد موتها. لكنه عندما دخل السجن حاول، للمرَّة الأولى، أن يجد الإجابة، لكي يتخلّص من ماري، لكي يدعها تموت بسلام. كنت أودّع رفاقي، في اليوم الأخير من الخدمة الإلزامية، عندما أخبروني أن عبد المسيح انتحر بعد خروجه من المشفى العسكري. كنت أبكي بصمت، وأتأمّل صورته التي أهداني إياها ذات يوم كذكرى، وكتب على قفاها مازحاً: «لله يا محسنين».

يأتي ماهر شرف الدين إلى قصيدة النثر بديوان «سورة فاطمة» متمرِّساً بالأوزان والإيقاعات بشقَّيها الخليلي والحرّ، خلافاً للكثير من مجايليه الذين لم تُسلس لهم البحور قيادها، ولم يختبروا أيَّ شكل سابق على قصيدة النثر... لم أكن بحاجة للتعرّف إلى ماهر شرف الدين بشكل شخصي، لكي أشعر بتلك الرهافة الخالصة التي تتقاطع مع الشعر في غير وجه من الوجوه. ولم أكن بحاجة لأن أعرف عن محاولاته السابقة للانتحار لكي أدرك أن قصيدته الطويلة، التي تحوَّلت إلى مجموعة مستقلة، قد خرجت من أحشاء الخراب الروحي والعاطفي...

شوقي بزيع، «المستقبل»، 6 أيار 2006